الباب العاشر

جرائم السجن

مقدمة بقلم برنارد شو :

إن السجن اليوم جريمة أسوأ من تلك الجريمة التي يرتكبها الضحايا والمجرمون، لأنه ليس هناك مجرم واحد يستطيع أن يكون عنوانا للشر المجسم أو منتهكا من الطراز الأول كأمة تدعى النظام وتشيع عن نفسها أنها تحارب الموبقات في كل مكان وزمان .

إذن فإذا كان أي إنسان على استعداد لقراءة هذا الموضوع الخطير بروح ماؤها انه من محبذي إنشاء معاهد للإصلاح والتهذيب ، فإنني أرجوه مخلصاً أن يترك الموضوع ، ويذهب فيعمل شيئاً آخر . لأن هـــؤلاء المصلحين الذين ارتكبوا في الماضي أخطاء كثيرة جاءت عن طريق التعصب وبذر بذور الفساد حولوا معاهد الإصلاح هذه إلى مغارات شيطانية للعذاب والهلاك . . .

وإذا كان العكس ويعود القارىء يعتذر ويندم فليقرأ من غير توقف .

إن الصعوبة في ايجاد مذنبين نادمين عندما تقع الجريمة لها وجهان : الوجه الأول اننا جميعاً نشأنا نعتقد بأنه يمكننا أن نتلخص مما ورثناه من أجدادنا وآبائنا من مثل هذه العيوب دفعة واحدة لتأصلها فينا وتدرجها من جيل إلى جيل من آبائنا ومصلحينا أو بأي كبير كان له علينا سلطان ما . .

والوجه الثاني ، أننا نشأنا معتقدين بأن المجتمع لا يخطىء .

أما اليـوم فإن المجتمع لايخطيء فحسب ، بل يبرىء المجـرم ، ويزور الحقـائق ويطمس معالمها ، ويسيء إلى ذلك الذي يحاول أن يكشف عن أخطائه ومفاسده .

مجتمع كمجتمعنا يغشاه الفساد وتسيطر عليه أساليب الأنانية وحب الذات وإهمال حقوق الفرد في الحياة .

وعلى هذا فشعبنا اليوم شعب سفوسطائي وحقود معاً .

فالقضاة مثلا ، وأصحاب الأمر والنهى ، يعيشون طيلة حياتهم يرسلون زملاءهم البشريين إلى أعماق السجون ، وعندما تصلهم بعض الأخبار بأن السجون فى غاية الوحشية والقسوة على نزلائها ، وأن لا إنسان يصلح للعيش هناك فإنهم سرعان ما يجيبونك والهدوء مرتسم على وجوههم : ليس القصد من السجون أن تكون فنادق أو دور راحة واستجمام . . .

(ا) التعـــــــــذيب

ليس فى استطاعة الناس أن يعرفوا شيئاً عن خفايا السجون ، وما يدور فى جنباتها من أحداث ومهازل . وأول ما يتبادر إلى أذهانهم هذا السؤال : هل للمجرم الحق فى أن يشكو من المعاملة القاسية التى يلقاها فى السجن ، وهو الذى سبق أن ساء التصرف واقترف جرما يعاقب عليه بنص القانون ، فاقتيـــد إلى هناك لينال جزاءه واستحقاقه ؟ !

ثم يسألونك أيضاً : ولماذا وعن أى شىء يشتكى ؟

فنجيبهم : إن ندم المجرم ، يبدو لك فى سكونه المطبق . وفى وحدته وعزلته ، وتضييعه وقته الذى كان يجب أن يستفيد منه لصالح نفسه وصالح غيره . وتقديره لرهبة المسئولية وللسجن بين جدران أربعة مدة طويلة أو قصيرة من الزمن يعيشها على أحر من الجمر .

ولكنك أيها القارىء قد تقول : لماذا تتحدث بالذات عن « التعذيب » كأنه أشبه بزيت مغلى أو عود حديد ساخن ؟

وقد تقول : انظر إلى نفسك . انك تعيش فى منزل أنيق تحوطه حديقة غناء ، تطلب الراحة والاستجمام والعزلة والفرار من المجتمع .

فأجيبك : إن الفارق بين سجنى وسجن المجرم العادى كبير ملحوظ . فأنا أتخلص من مسئولياتي واضيع أوقاتى فى كسل وتراخ كجنتلمان حقيـــقى . أسرى عن نفسى ولكنى لا أضيع وقتى سدى أيها القارىء الكريم ، لأنى أفيدك وأفيد مجتمعك المرذول .

ما السجن إلا مكان مشروع تنفـذ فيه أقسى أنواع العذاب المعروفة ، بدليل أن سيد القرية صاحب الضياع الواسعة والاصطبلات الكبيرة يفصل سائساً من الخدمة إذا ساء معاملة خيل من خيوله الجميلة المطهمة ، ولن يخطر على بال سيد القرية

أن اصطبلاته سجون للخيل . وأن المكان الذى تعيش فيه خيله ليس مكانها الحقيق من الطبيعة والخلاء .

فى شبابى شهدت الممثلة الإيطالية العالمية « ريستورى » وهى تقوم بدور « مارى ستيوارت » ولم يسترع نظرى شىء فى تمثيلها غير مرحها ، ومدى التأثير الذى طرأ عليها عند ما وجدت نفسها فى الهواء الطلق تنعم بالحرية بعد شهور السجن الطويلة .

وعند ما رأيت جمهرة من « السياس » وهم يغبطون على السندس الأخضر ، ذكرونى « بريستورى » فعرفت لنوى أنهم انطلقوا حالا من سجون اصطبلاتهم ..

وفى السجون ترى أكواما من الناس يرزحون تحت عبء ثقيل من العذاب والألم . فلا نوم هادئا ولا راحة بال . ليالى المجرم هناك أحلك من الظلام . أسرة خشبية ملوحة جافة خشنة ..

ثم يأتى شىء آخر له أهميته وحسابه . وهو أن الناس عند ما يفكرون فى أمر هؤلاء المجرمين التعساء ، فإنهم لا يصلون بتفكيرهم إلى حدود المنطق السليم ، بل يسيئون إلى نواحى الإصلاح ويعرقلونها ... ولنضرب لذلك مثلا فنقول : خذ جماعة المدبرين الذين يهدفون إلى إصلاح السجون ، إنهم يجنون جناية كبرى على وسائل الإصلاح ولا يعملون بالقول السائر « السجن إصلاح وتهذيب » فإذا كان عليك أن تعاقب مجرما بغية إصلاحه فإنك بعقابك له تسىء اليه أو تسبب له جرحاً جثمانياً ، وإذا كان عليك أن تهذبه يجب أن تحسن حاله . والرجال لا يمكن إصلاحهم بالتعذيب أو التنكيل أو تشويه معالم الجسد ..

وتهذيب الناس واصلاحهم بنفس الطريقة ، كأنك تأخذ رجلا مريضا بالتهاب الرئة وتحاول أن تشفيه بطريق التأديب ، وإذ تقول أن الرجل المريض بذات الرئة رجل خطير على المجتمع ، وأنه لا يمكن أن يصاب بمثل هذا المرض إذا كان ملتفتا إلى نفسه تمام الالتفات ، فإنك ستصل إلى حل أخير فحواه أنه سينال درسا قاسيا أو لا بمعاقبته لإهماله وضعفه ، وردع الآخرين لئلا يسيروا على منواله . وأنت بذلك إنما تجرده من ثيابه وتتركه عاريا طوال الليل تحت رحمة الأنواء والعواصف والثليج .

ولكن مادمت مقتدرا على رد صحته له ، إذا أمكنك ذلك ، وإرجاعه برئتين سليمتين ، تعين طبيبا خاصا ليباشر عملية العقاب ، ليأمر المريض باستعمال أقراص

الدواء المرة ويجرع ما يقدم اليه من شراب كالعلقم فى غير تردد أو احجام .. مثلك فى ذلك مثل هؤلاء الرؤساء الذين يأمرون بمثل هذا العلاج .. وفى املاء الاوامر لذة لا تعادلها لذة عند هؤلاء الرؤساء والمصلحين ، وهذا لا شك يثبت لنا مقدار جفاء نفوس هؤلاء الرؤساء الذين لا يقدرون النتائج ولا يعلمون لها أى حساب ..

وعندما عمد المصلحون إلى إدماج العقاب وتنفيذه مع الإصلاح العقلى والذهنى وقعوا فى نفس الأحبولة والشرك . فمن المعروف أن إصلاح المجرم شىء ثابت فى الذاكرة ، وتحطيم احترام قوانين السجن ذاته ، عن طريق التعذيب الآلى ، شىء معروف ومجرب . والعزاء الوحيد لمثل هذه المتناقضات أنه مادام المعذبون انفسهم يشعرون بأنهم لا بد أن يكونوا كذابين ومرائين ، فإن ضميرهم لن يكون مرتاحا عند تنفيذ التعذيب . ولكن المتناقضات بديهية هنا ، وذلك لأننى أضعهم فى نفس الصفحة ، ورؤساء السجون ومديروها يضعونها فى صفحات مختلفة على حدة ، وذاكرة القارىء ، كما يظهر لى ليس فى وسعها أن تستسيغ كل شىء ، لأن هناك أكثر من شىء واحد يجهله القارىء عما يدور فى السجون وما يجرى فى أركانها ..

وعلينا أن نذكر بعض موانع وعوائق المحاكم ، لأنها هى الأخرى وسيلة لهدم طرق الإصلاح والتهذيب .

مثال ذلك أن قوانين الدولة تنص على عقاب هؤلاء الذين يخالفونها . وتنزل بهم أقسى أنواع العذاب . وأن الآخرين يقبلون نصوص هذه اللوائح والقوانين لأنهم يخافون مخالفتها ، ولذا فإن النظام يمكن أن يحفظ إلى حد مناسب بين المخلوقات من غير أن تفهم ضرورته . أو إذا فهموه من غير شعور أو وعى تباعدوا عن مخالفته .

وهذا هو الأساس الفج لكل انظمتنا . نظام المدرسة والمصنع والجيش والبحرية والسجون ، وكل ما يتعلق بقانون الاجرام . مثل هذه الأنظمة ليست فقط موضوعة بواسطة حكام قساة ولكن ببشر غلاظ القلوب جفاة .

منزل برنارد شـــو بآيوت سانت لورانس

(ب) لا يمكن القضاء على الجريمة بالشفقة

من الخطل أن يقول المصلحون بأن الخارجين على القوانين يمكن اصلاحهم بطريق الشفقة أو المعاملة الحسنة . وقد يكون هذا صحيحا فى حالات نادرة إذا وجدت الرجل الصحيح الذى يختار اسوأ هؤلاء الرجال الخارجين على القانون ويمهد لهم الوقت الكافى لمعالجتهم العلاج الناجع . أما إذا لم يتوفر وجود ذلك الرجل الصحيح فإننا نجد رجل البوليس والجلاد خير من يتعهد المسكين بتنفيذ اصرم العقاب عليه فى وقت قليل وبلذة وبنشوة تدعوان إلى الإعجاب . وطرق القسر والإرهاب طرق مشروعة محللة فى عالم السجون ، وإن كانت تتنافى مع الرسالة الإنسانية وتخالف المبادىء العليا ، وبموجبها تتولد فى المجرم عقد نفسيته كثيرة وتزداد وحشيته ويفقد أمله فى الحياة والوجود تدريجيا .

وفى السجون أيضا نجد أن الحراس يحمون أنفسهم من قسوة المجرمين وطغيانهم بكل الطرق المشروعة فى السجن ، وهى استعمال القسوة الدائمة والضرب المستمر . والعقاب الرسمى فى مثل هذه الأحوال هو الجلد وتقييد المجرمين فى الأغلال عدة شهور .

إن نظام سجوننا نظام يفتقر إلى تجديد وإصلاح . ونظرية العقاب الصارم الذى يطبقونه على المجرمين والمتوحشين منهم لا بد له هو الآخر من اصلاح وترميم .

وليس معنى هذا أننى أرمى إلى معاملة المجرمين بالحسنى أو بالشفقة ، فالشفقة فى هذه الحالة لن تجدى نفعاً ولن تفيد اصلاح نفوس هؤلاء التعساء من البشر المساكين ، ولكن خير طريقة مثلى هى معاملتهم معاملة بين بين . بين الرقة والقسوة ، وأن يهدف المشرع أو المصلح إلى اصلاح حالهم ونزع الشر من نفوسهم بطرق كثيرة لا بد أن يعمل لها كل حساب .

ولكن التجربة القاسية أثبتت أن مثل هؤلاء المشرعين أو المصلحين أو المديرين أو الحكام قوم لا يعملون مطلقا على اصلاح نفوس هؤلاء التعساء ، بل يخافونهم على الدوام ويرهبون جانبهم ويتحاشونهم فلا يعمد واحد منهم إلى تقويم ما اعوج من نفوسهم وما تداعى من بنيان كيانهم .

برنارد شو أمام تمثال له من صنع « رودان »